مقدمة

فى تلك البقعة التى اصطلح الناس على تسميتها « جزيرةَ العرب » ، عاشت أمَّةٌ جاهلية . فكانت فى جملتها أذلَّ الناس ذلاً . وأشقاهم عيشًا . وأبينَهم ضلالة . وأعراهم جلوداً . وأجوعهم بطونًا — معكومين على رأس جحر . بين الأسدين : فارس والروم . نجتهلهم الحميَّة فيثورون لأقل الأسباب دعوة إلى ثورة ، يحتربون حتى ما تضع الحرب أوزارها ، إلا ليستأنفوا أخرى أزكى ناراً . وأقوى استعاراً . وتستنفرهم حاجة العيش فينفرون إلى التماس الرزق من أحقر سبله . وأخسّ وجوهه ، لا يبالون بما أتوا . ما داموا يشبعون غرائز غرسها فيهم شظف العيش ، ونشَّأهم عليها جدب الصحراء .

وتتيقَّظ فيهم غريزة الخضوع التى فطر عليها الناس ، تقسرهم على البحث عن إله له من القدرة ما ليس لهم ، فيقومون إلى الأحجار ينحتونها أصناماً يسبِّحون بحمدها ، ويقدسونها ، لا يصدهم عن ذلك ما بها — من قماءة وذلَّة — يكاد يهتف بهم : « إنْ هِىَ إلاَّ أسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أنْتُمْ وآبَاؤُكُمْ ، ما أنْزَلَ اللهُ بها مِنْ سُلْطَانٍ ».

لا والله ، ما فى بلادهم يومئذ من شَىء يُحسَدون عليه : من عاش منهم عاش شقيًّا ، ومن مات تردَّى فى النار .

بسم الله الرحمن الرحيم

اللّهم أنت ولىّ الحمد ، فلك الحمد الذى تراه يقادر قدرك ويوازن نعمك ، ويكافئ منّتك ؛ فإنى لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك . . .

اللّهم هذا جهد المقلّ ووُسْع المرهَق . . بحوث تتّصل بكتابك فى عليائه ، وتعتزى إليه فى سمائه ، أبرزها وقت محدود ، وفكر مكدود — لم أقصد إليها على تمنُّعها وتأبّيها ودقّة المسلك إليها ، وعزة الصواب فيها إلا تيمُّنًا به وإيثاراً له . . .

اللّهم فأنبتها نباتًا حسنًا ، وجنبنى وساوس الغرور وهواجس الضلال . . .

اللّهم وصل وسلم على سيدنا محمد ، أفضل من عرفه الوجود ، وأنبل من تحدث عنه التاريخ ، وعلى آله وصحابته الذين أعلوا رايته ، وأعزُّوا آيته ، فاجتمع لهم عز الدنيا وخير الأخرى .

ربّنا عليك توكّلنا ، وإليك أنبنا وإليك المصير .

أحمد حسن الباقورى

والله . ما نعلم أمَّةً فى حاضر الأرض كانت أصغر حظًّا وأدقَّ شأناً منهم — حتى جاء القرآن فنقلهم من الذلة إلى العزة ، ومن الشقاء إلى السعادة ؛ بل من الموت إلى الحياة ؛ ورفعهم من أمَّة محقورة . لا تكاد تحفل بها أمة ، ولا يأبه لها شعب ، إلى سادة فى الأرض ومُلوك على رقاب الناس .

جاء القرآن فهذَّب أخلاقهم ، ورقَّى أفكارهم ؛ ووجه أنظارهم إلى مثل أعلى هو المثل الأعلى ، ودفعهم — بعد أن لقَّنهم الفضيلة فى أسمى صورها وأجمل معانيها — إلى الأمم : يغزونها ؛ فى إيمانهم قوة الحق والسيف ، فإمَّا اهتدت فكان لها ما لهم ، وعليها ما عليهم ؛ وإمَّا أبت ، فبسطوا عليها سلطانهم ونشروا نفوذهم ، فدانت لهم الدنيا ، وانقاد العالم . وتخلصوا هم من محل البداوة العاصف إلى ظل الحضارة الوارف .

فلستَ تشفق من خلاف مخالف ، وإنكار منكر ، وتجهُّم معترض ؛ إن قلتَ إنه خلقهم خلقًا جديداً . ما كانوا يحلمون به أو يفكرون فيه .

ذلك أثر القرآن فى العرب أنفسهم . ولغات الأمم فى كل عصور التاريخ ذوات صلات قويَّة ، ووشائج متينة بأممها ؛ فرقىُّ أيَّة أمة فى أى زمن رقىّ للغتها ، وانحطاطها انحطاط لها ؛ من حيث كانت اللغات مرآة تنعكس عليها صور العيش وألوان الحياة ، حتى ليستطيع الباحث أن يتبيَّن فيها ما كانت تلابسه الأمم فى نواحى الحياة العقلية والسياسيَّة والاجتماعية .

فإذا كان القرآن قد أثَّر فى الأمة العربيَّة هذا التأثير الذى لا يصل إليه إلا الإجمال ، ولا يكاد يدركه التفصيل ؛ فليس الأثر الذى أحدثه

فى لغتها بأضيق من الأثر الذى أحدثه فيها ، كيف ، واللغة العربية أعظم استعداداً لقبول هذا الأثر ، وأكثر انقياداً من الأمة العربية وهذا الذى بدا فى رجوع العرب بعد قليل إلى أخلاق الجاهلية واطّراحهم أحكام الإسلام ، مع أن اللغة ظلت تمشى قُدُمًا لا يتكاءدها معنًى ولا يشق عليها أن تساير الحياة الجديدة — شاهدُ ذلك ودليله .

تلقّت اللغة هذا الأثر العظيم وفيها من الحصانة وعندها من الاستعداد — وأعنى بذلك عوامل النموّ فيها — مايدافع عنها خطورة الانتقال من جحر ضبّ إلى ملك واسع الرقعة مترامى الأطراف ، فلم يعجزها أن ترى ما لم تكن رأت ، فقامت به ، واتّسعت له ، مستعينةً على ذلك بالنحت طوراً ، والتجوّز تارة ، والتعريب أخرى ؛ فانتصرت على ما كان خليقًا أن يعييها ويقفها منه موقف الذليل الضعيف .

وتلقى العرب أثر القرآن فيهم ، ولم تكن فيهم تلك الحصانة المنيعة ، فلم يلبثوا أن فنوا فى غيرهم ، ولم تعد لهم الشخصيّة العربية باقية كما بقيت للّغة شخصيّتها ، حتى فى عصور الضعف والاضمحلال .

* * *

تأثرت اللغة من طريقين :

أولهما : طريق مباشر ، وهو ما فى القرآن من جديد فى اللفظ والمعنى ، والغرض والأسلوب ؛ فقد علمنا أن العرب حين سمعوا القرآن ، سمعوا به شيئًا ملأهم روعة وإعجابًا فرجعوا إلى أنفسهم يلتمسون عندها ما

يمكّن لهم أن يسابقوه فى ميدان عرف بهم ولهم ، حتى لا يستأثر دونهم بالقلوب تهتز له ، والأسماع تتداعى إليه — ولكنّهم وجدوا عندها العجز واضحًا والإخفاق فاضحًا .

أعجزهم كما يقول الشيخ [١] :

« مزايا ظهرت لهم فى نظمه ، وخصائص صادفوها فى سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها ، ومجارى ألفاظه ومواقعها ، وفى مضرب كل مثل ، ومساق كل خبر ، وصورة كل عظة ، وتنبيه وإعلام وتذكير ، وترهيب وترغيب ؛ ومع كل حجة وبرهان ، وصفة وتبيان ؛ وبهرهم أنهم تأملوه سورةً سورةً ، وعشراً عشراً ، وآيةً آيةً ؛ فلم يجدوا فى الجميع لفظة ينبو مكانها ، أو يُنكر شأنُها ، أو يُرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه أو أحرى أو أخلق ؛ بل وجدوا اتساقًا بهر العقول ، ونظمًا أعجز الجمهور ، ونظامًا والتئامًا ، وإتقانًا وإحكامًا ، لم يدع فى نفس بليغ منهم — ولو حلّ بيافوخه السماء — موضعَ طمع ؛ حتى خرست الألسن أن تدّعى وتقول ، وخلدت القروم فلم تملك أن تصول . . . » .

لا ريب أن ذلك من شأنه أن يحملهم على إدمان النظر فيه ، وشدة التأمل له ؛ ومن ذلك يحملهم على محاكاته والتأسّى به فى ألفاظه وأساليبه ومعانيه ؛ فإن النفوس مفطورة على حب الكمال ، ومحاولة السعى إلى إدراكه والجرى فى طريقه .

ولئن فاتهم أن يلحقوا القرآن فى حسن سبكه ، وقوة نسجه ، وإحكام

---

(١) الشيخ هو عبد القاهر الجرجانى ، صاحب دلائل الإعجاز .

أساليبه وتخير ألفاظه وقوة معانيه وسمو أغراضه ، وما إلى ذلك مما وقفهم موقف الحيرة والدهش ، وجعلهم يرمونه تارة بأنه سحر ، وأخرى بأنه شعر ؛ إنه لن يفوتهم أن يتحروا ما يدنيهم منه ويقربهم إليه ، ولهذا أثرُه البالغ فى تهذيب لغتهم ، وإحكام أساليبهم ، وتخير معانيهم ، وإفاضة فنون من التجديد على هذه اللغة بوجه عام .

* * *

الطريق الثانى : طريق غير مباشر ، وذلك تمكينُه للعرب أن يختلطوا بغيرهم من الأمم ذوات الحضارة الرائعة ؛ ووضعُه تحت أنظار العربيَّة المدنيَّة الفارسيَّة والرومية والمصرية ، ترى فيها ما لم تمكنها منه حياتها البدوية ؛ فيكسبها ذلك غنًى وثروة فيما لم تعرف ، إلى غنًى وثروة فيما عرفت ، فقد رأينا المملكة الإسلامية تتكون من أمم مختلفة فى عاداتها وتجاريبها ومناهج تفكيرها وسائر مظاهر حياتها — والعرب قد امتزجوا بهذه الأمم بالتزاوج والتسرّى والاختلاط ، فبعد أن كانت اللغة ملك العرب ، أصبحت ملك المسلمين جميعًا ، فهى فى الجزيرة والعراق والشام ومصر والأندلس ، غنية فى كل نواحى الحياة ، بعد أن كانت ثروتها فى حدود بيئتها ، تعرف الجمل وما إليه ، وتجيد تصوير الصحراء وما فيها مما يتصل بحياة العرب وتأخذه حواسهم ، فقد عرفت المنطق ، وآوت العلم ، واحتملت الدين ، وقد كانت لا تعرف من ذلك شيئًا ، أو تعرف منه ما هو علم لا ينفع ، وجهالة لا تضر .

وليس من شك فى أن القرآن هو الذى مكّن للعرب أن يختلطوا بغيرهم من الأمم التى كانت تعتبر أنها بالمنزلة السامية ، والمحل المرموق ، وترى نفسها فوق أولئك الذين نشأتهم الصحراء القاحلة فيها شتّى صنوف الفقر وألوان الشقاء ، دون أن يمدوا أبصارهم إلى نوع آخر من الحياة أخف ألماً وأقل شقاء .

وأى مساغ للشك فى ذلك ، ونحن نعلم أن هذا الجيل من النوع الإنسانىّ على ما به من عنجهيّة وما فيه من جهالة ليس عنده الاستعداد لهذا الاختلاط — وإن فرضنا أن فيه استعداداً لذلك ، فمن أين له أن يفرض لغته على قوم لهم لغات نشأتها الحضارة ، فعرفت ما لا تعرف العربية منه قليلا ، ولا كثيراً ؟

قلنا إن القرآن أثر فى اللغة من طريقين : طريق مباشر ، وآخر غير مباشر : فكيف كان ؟ وإلى أى حد كان هذا التأثير ؟ وما مظاهره ؟

ذلك ، وما يتصل به ، هو ما أريد أن أمسّه بعدُ فى كثير من الإجمال ، وأنا أبرأ إلى الله تعالى من حولى وقوتى ، إلى حوله وقوته ، ضارعاً إليه عز اسمه ؛ أن يلهمنى الصواب ، ويهدينى سواء السبيل .

بين يدى الكتاب

كنت قد بعثت بكتاب إلى السيد الأستاذ الدكتور طه حسين رجوته فيه أن ينقد هذا البحث الذى تتفضل دار المعارف بنشره تحت عنوان : « أثر القرآن الكريم فى اللغة العربية » ، وهذه صورة كتـــابى إلى السيد الدكتور طـــه حسين :

سيدى المفضال الجليل دكتور طه حسين ، حفظه الله .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، « وبعد » :

فإن لى إلى السيد الجليل حفظه الله حاجة أرجو أن أظفر بها لأظفر بخير كثير .

ولابد من حديث قصير بين يدى هذه الحاجة . ربما أعان على قضائها ، ويسر السبيل إليها .

فى سنة ١٩٣٤ كانت أمور السياسة فى بلدنا أشد ما كانت قبحاً فى الأعين ، وثقلا على الصدور ، إلى جانب أزمة مالية طاحنة ، وظلم ملكى سافر ، وطغيان إقطاعى أليم ، وكانت الجامعة المصرية يومذاك تموج بحركات ولدتها انفعالات نفسية موصولة بحرية الجامعة التى كانت يومذاك شديدة الوفاء للدكتور طه حسين ، وكانت حكومة ذلك العهد قد أنكرت

عليه حريته وحرمت الأدب والفكر الجامعى من فضله وعلمه فى إصرار شديد على جحود فضل ذوى الفضل .

وعلى أننا نحن طلاب الأزهر لم نكن نعنى بشىء من ذلك عناية تدفعنا إلى الإسهام بنصيب فيه . لم يفت بعضنا ممن كانت لهم مشاعر مرهفة واستعدادات نفسية خاصة أن نحس فى تلك الظروف ماينبغى أن يحس ، وأن نتأثر للدكتور وبالدكتور تأثراً يعنف حيناً ويخف أحياناً . ولا أزال أذكر الشعر العربى الذى كان يردده الدكتور طه حسين ، وأكاد أتمثل نبرات صوته فى أذنى هذه الساعة وهو يقول :

لقد زادنى حبًّا لنفسى أننى بغيض إلى كل امرئ غير طائل
وأنى شقى باللئام ولا تـرى شـقيًّا بهم إلاكريم الشمائل

وأشهد أننى لم أذق شعراً عربيًّا قبل أن أذوق هذا الشعر يومذاك .

ولقد دفعتنى مع إخوانى هذه الأحوال إلى الدعوة إلى إضراب شمل الأزهر ومعاهده جميعاً ، وبعثت حكومات ذلك العهد قوانين كانت قد ماتت ، فعاقبتنا بالفصل من الأزهر وبالسجن لفترات مختلفة . وأذكر للدكتور طه فى هذه الأثناء ، وقد كنا فى بيت الأمة نصغى إلى نصائح النحاس باشا رحمه الله ، فى عدم إحراج الوزارة الصديقة ، وقد دخل فى هذه الأثناء الدكتور طه حسين ، فاحتكمنا إليه ، فحكم حكم الرجل الذى يعرف الحرية ويحترمها ، ويضع لها الحدود فى إطار كريم

من هذه المعرفة وهذا الاحترام. فقد قال لنا أطال الله بقاءه ، مانصه :

« لقد أدهشتمونا أيها الطلاب بهذا الإجماع الذى لايعرف له مثيل فى تاريخ الأزهر » . ولئن كان الدكتور قد وقف منا ذلك اليوم موقفاً انتصر فيه لمصلحة الشعب التى كان يمثلها آنذاك الزعيم الراحل مصطفى النحاس ، رحمه الله . فجعلنا نحن الطلاب غير الوفديين نهبى إشاعات وظنون ؛ لقد كان لهذا الموقف عواقب طيبة ، جعلت حركتنا نحن طلاب الأزهر مقدورة مشكورة ، ذات ثمار طيبة وعواقب حميدة . ذلك تاريخ لا أتمثله إلا وأتمثل الدكتور طه حسين رجلا مفضالا . غيوراً على الحرية والوطنية والشعبية ، غيرة لايدانيه فيها أحد أعرفه .

فى هذه الأثناء — وأنا يومئذ زعيم حركة طلاب الأزهر . ورئيس اتحادهم — كان علىّ أن أكتب رسالة أجتاز بها مرحلة التخصص .

ولم تكن عنايتنا بهذه الألوان من البحث عناية يلفتنا إليها الشيوخ ، ولايقدرونها لنا ، إذا لفتنا غيرهم إليها ، وهذا مع بلبلة الخاطر وضيق الحياة وعدم القدوة جعلنى أبذل جهداً شديد التواضع فى تأليف الرسالة تأليفاً يصلح للخلود .

غير أننى أنظر إلى هذه الرسالة المتواضعة أشد التواضع فيما أرى : نظرة الأب إلى أولاده . هم أحب شىء إليه سواء فى ذلك الجيد والردىء ، والصحيح والسقيم . فليس اعتزازى بها إلا من هذا الجانب ، جانب أنها

نتاج ذهن مكدود ، وعيش مجهود ، وزمن محدود .

فإذا قدر سيدى حفظه الله هذه الظروف ، وما أراه إلا قادراً لها ، رجوته أن يتفضل مشكوراً مأجوراً بتقديمها إلى المتأدبين ، تقديم الناقد لاتقديم الحامد . وإن فى نقده حفظه الله وأطال بقاءه لنفعاً للأدباء يكمل به النفع بالجهد المتواضع الذى بذلته فى هذه الرسالة التى تتفضلون بتقديمها ، وتطويق كاتبها بمنة تخلد خلود الدهر ،وتبقى بقاء العمر .

والسلام على السيد المفضال ورحمة الله وبركاته .

أحمد حسن الباقورى

وقد تفضل السيد الأستاذ الدكتور طه حسين
مشكوراً فكتب مقدمة لهذا البحث هذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب رائع ممتع بأعمق معانى هاتين الكلمتين ، وأوسعها ، فهو يتحدث عن القرآن الكريم وعن أثره فى اللغة العربية إثر نزوله وبعد ذلك بوقت طويل حين تحضرت الأمة العربية وحين أصبحت حضارتها من أهم وأعم الحضارات العالمية فى العصور القديمة ، فالقرآن الكريم هو الذى وحد اللغة العربية الأدبية بعدأن كانت تختلف لهجاتها باختلاف بعض القبائل ، كما كان الحال فى تميم وفى قضاعة وغيرهما من القبائل . وفضل القرآن إثر نزوله هو أنه جعل لغته لغة أدبية للعرب جميعاً ثم لغير العرب من الأمم التى خضعت لسلطان الأمة العربية بعد الفتح ، فالقرآن إذن لم يكتف بقصر اللهجات القبلية على أن تظل لغة التخاطب العادى دون أن يكون لها تأثير قليل أو كثير فى اللغة الأدبية العامة ، بل قد أثر فى لغات كانت حية منتشرة فأخفاها القرآن من البلاد الإسلامية وأتاح للغة العربية أن تستأثر بألسنة الناس وأقلامهم وقتاً غير قصير ، فما أكثر الفرس الذين استعربوا واتخذوا لغة القرآن لغة لألسنتهم حين يتحدثون ولأقلامهم

حين يكتبون ! وما أكثر الفرس الذين أصبحوا شعراء وأصبحت اللغة العربية هى التى يؤدون بها شعرهم ! وكذلك كان شأن اليونانية فى الشرق الأدنى . فقد كانت هى لغة الكتابة والتعليم والتأليف ، ولم تستطع اللاتينية أن تخفيها من هذا الشرق الأدنى ، ولكن اللغة العربية هى التى ردت لغة اليونان إلى أهلها فى البلاد اليونانية واستأثرت بألسنة الناس وأقلامهم فى هذا الشرق . . . وكثير من الناس فى سوريا والجزيرة كانوا يتكلمون الآرامية والسريانية خاصة كما كان المصريون يتكلمون القبطية ، ولكن هذه اللغات تضاءلت شيئاً فشيئاً وغلبت اللغة العربية على الألسنة والأقلام . وما أسرع ما استأثرت العربية بأهل العراق ، وأصبحت كأنها لغتهم منذ وقت بعيد!

ومع أن العرب الجاهليين قد انتشروا قبل الإسلام فى العراق والجزيرة والشام ، فقد كان أهل هذه البلاد محتفظين بلغاتهم الخاصة رغم وجود العرب فى هذه الأقطار ورغم ما أسس المناذرة والغسانيون من ملك فى العراق والشام. ولكن ما كاد الإسلام يظهر ، وما كادت هذه الأقطار تخضع لسلطانه حتى جعلت هذه اللغات تتضاءل وتستخفى شيئاً فشيئاً وتخلفها اللغة العربية حتى أصبحت لغة الناس عامة فى هذه البلاد . وما كاد العرب بعد الفتوح يدخلون فى بلاد الفرس ويستقرون فيها حتى تعلم الفرس هذه اللغة الجديدة ، وغلبت على ألسنة كثير منهم وأقلامهم ، وما أكثر الفرس الذين شاركوا فى إنشاء علوم اللغة العربية وتدوينها ! وما أكثر الفرس الذين استأثروا ببعض هذه العلوم حتى أصبحوا كأنهم أصحابها ! وكلنا يعلم مكان كتاب

سيبويه بين كتب النحو ، وكلنا يعلم أيضاً استئثار الفرس بتدوين علوم البلاغة العربية .

وليس من القليل أن نرى الأزهر يدرس كتب الفرس فى البلاغة ولايكاد يلتفت إلى غيرها ، وكانت دروس البلاغة فى الأزهر مقصورة على كتاب التلخيص الذى اختصر فيه الخطيب القزوينى كتاب السكاكى وشروح هذا التلخيص كانت فارسية المؤلف كما كان المتن ، ولم يعرف الأزهر لهذا التلخيص إلا شروح التفتازانى المختصر والمطول والأطول .

وجاء الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وأراد أن يجدد فى درس البلاغة فدرس أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى .

وأكثر من هذا أن فلسفة اليونان حين ترجمت إلى اللغة العربية عن اليونانية أحياناً وعن السريانية أحياناً أخرى أقبل الفرس على هذه التراجم وتعمقوها وآكثروا الكتابة والتأليف فيها . والغريب أن كتبهم فى هذه الفلسفة هى التى استأثرت بدروس الأزهر . وعن كتبهم تعلمنا المنطق وما بعد الطبيعة حين كنا طلاباً فى الأزهر .

ومع أن الفرس قد أحبوا لغتهم الفارسية ونظموا فيها الشعر منذ أواسط القرن الرابع للهجرة فقد ظلت اللغة العربية لغة العلم والفلسفة عندهم إلى أواخر القرون الوسطى . وانظر إلى كتب ابن سينا والتفتازانى والسيد الجرجانى والطوسى وغيرهم . وكل هذا بفضل القرآن الكريم ، فبفضله انتشر الإسلام ،

وبانتشار الإسلام والقرآن انتشرت اللغة العربية ، ولم يقف الأمر عند الفرس فى الشرق ، بل تجاوزهم إلى أهل الهند ، فكثير من علماء الهند الذين أسلموا قد شاركوا فى هذه العلوم وشاركوا فيها باللغة العربية .

ولم يقتصر الأمر على الشرق فقد استعربت مصر ، واستعرب شمال أفريقية ، ومازالت هذه البلاد مستعربة أوعربية . واستعربت إسبانيا ، ومع أن الإسبانية قد غلبت عليها فى آخر القرون الوسطى فآثار اللغة العربية الأندلسية مازالت باقية لايمكن أن تمحى ولاأن تنسى إلا إذا محيت ونسيت حضارة الغرب ...

كل هذا وأكثر من هذا بينه الأستاذ الجليل صاحب الفضيلة الشيخ الباقورى فى هذا الكتاب فى إيجاز رائع ممتع . وأغرب شىء فى هذا الكتاب أن الأستاذ الجليل كتبه أثناء الشباب حين كان طالباً فى الأزهر ،ونحن نشكر له أجمل الشكر وأعمقه أنه قد حفظ هذا الكتاب ولم يهمله ، وهو الآن يتفضل بإهدائه إلى الأمة العربية ، فباسم هذه الأمة أجدد له أعمق الشكر ، وأثنى عليه أجمل الثناء .

أرجو أن يسبغ الله عليه نعمة العافية ليهدى إلينا أمثال هذا الكتاب إن شاء الله .

طه حسين

القرآن

هو الكتاب الذى أنزله الله تعالى على نبيه عليه السلام ، معجزةً باقية على وجه الدهر ؛ لا يخلق عن كثرة الرد ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ شاملاً لخيرى الدنيا والآخرة ؛ منطويًا على قوانين عادلة حكيمة ، فيها وحدها شفاء الأمم من أدواء ؛ تسلمها — ما بقيت معرضة عنه بعيدة منه — إلى الفناء العاجل ، والألم الشامل .

نزل به الروح الأمين على أسلوب ، يعيا البيانُ ويتخاذل إن حاول تجليةَ حسنه وإبرازه من قرارة النفس إلى دائرة الحس ؛ وحسبه أن يرمى أمراء البيان وأرباب الفصاحة بالحصر دونه ، والعىّ أمامه ؛ وحسبه أنه خلَقَ من أمة مفككة العرى مقطعة الوشائج تقنع من الغنيمة بالإياب. أمةً طامحة هيمنت على الدنيا ، وتحكمت فى رقاب العالم ، فى خلق كامل وعدل شامل ، ومجد عريض !

ولا أحسب هذا القلم الضعيف يقوى على وصف ما فيه من جمال وجلال . وما قيمة وصف يقول فى الشمس الضاحية : إنها شمس ضاحية ؟ وفى الجمال الساحر : إنه جمال ساحر ؟ فلا يزيد سامعه علمًا ولا يقفه على فائدة ؛ بل ربَّما كان هذا الوصف المتخاذل — وكل وصف للقرآن فذاك شأنه — بأن ينقصك جزءاً من الفائدة ، ويزيدك شيئًا من

الخفاء : أشبه وأحرى !

فحسبي أن أتذوق عذوبته . وأن أدرك حسنه ، فى أعماق نفسى ، وإن لم أستطع أن أكشف عن ذلك وأن أصل إلى تصويره تصويراً يشفى نفسى ويقضى حقه . وحسبى أن أضعه موضعَ ما يتطلب وصفاً ؛ لأن هذه الرسالة يقتضى نظامها أن أضعه هذا الموضع ، وكفى . . .

اللُّغَة

فى الخصائص لأبى الفتح بن جنى :

« حدُّ اللغة : أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم » !

وفى المختصر لابن الحاجب :

« حدُّ اللغة : كل لفظ وضع لمعنى » !

من هذا ، نرى أن اللغة تتألف من الألفاظ والمعانى والأغراض ، وإن لم تذكر هذه الثلاثة صراحة ؛ فلن يسعَ ابن جنى — وقد أهمل المعانى التى هى مدلولات الألفاظ — أن لا يراعيها مقدرة فى نفسه ، وإن لم يبرزها فى لفظه !

كما أنه لن يسع ابن الحاجب أن لا يلاحظ الأغراض التى يرمى إليها المتكلم من وراء الألفاظ الدالة .

ثم لا بد لهذه الألفاظ التى تدل على المعانى مقصوداً بها أغراض خاصة ، من طريق خاص فيه تجتمع تلك الألفاظ آخذاً بعضها برقاب

بعض ، وهو ما يسمَّى الأسلوب .

على أن هذين الأستاذين . وأحدهما من أئمة العربية ؛ والآخر من أئمة الشريعة ؛ لم يحدّا اللغة العربية ؛ وإنما حدّا اللغة من حيث هى لغة ، كما يقول « الهورينى » صاحب التقييدات على ديباجة القاموس .

ولذلك حدَّ هذا اللغةَ العربيةَ فقال :

« هى عبارة عمَّا حفظ من كلام العرب الخلص ونقل عنهم من الألفاظ الدالة على المعانى » .

وقد رأى أن هذا هو التعريف للُّغة العربية . وإن كان لم يذكر الأسلوب ولا الأغراض .

ولعل هذا الشيخَ ، ومن لفَّ لفَّه ، ممن لم يذكروا فى حد اللغة الأسلوبَ والأغراض ؛ إنما أرادوا حدَّ اللغة التى هم بصدد الكلام عليها ، من أن هذا اللفظ يدل على هذا المعنى أو لا يدل ، كما هو شأن الباحثين فى متن اللغة ؛ وإلا فلو أنهم كانوا يبحثون فى مقارنة اللغة قبل الإسلام وبعده ، ما وجدوا بدًّا من تعريفها بمثل : هى ما نقل عن العرب من الألفاظ الدالة على المعانى مقصوداً بها إلى أغراض خاصة بطريق خاص .

إذ لا يمكن أن تكون لغة الأمة — وهى صورة حياتها كما أسلفنا ومستودع أفكارها — ألفاظًا مجردة عن معانيها ؛ لأنها عند ذلك مهملة فلا قيمة لها ؛ كما أنه من غير المعقول أن تكون ألفاظًا ذات معان لا يقصد بها إلى غرض مراد منها ؛ لأنها عند ذلك عبث . وكذلك

لا يتأتى أن تكون ألفاظاً ذات معانٍ يراد بها أغراض ، ولا يراعى فيها طريق نظم هذه الألفاظ على شكل خاص يصل منه المعنى إلى النفس ، ما دام لكل لغة أسلوب خاص تتميز به عما سواها من اللغات .

وأنت قد رأيت أن القرآن الكريم ، أثر فى اللغة العربية ، بذاته وبما دفع إليه اللغة من حياة تخالف فى كل ، أو جل مظاهرها ، حياتها قبله — وواضح أن هذا الأثر كما شمل الألفاظ فزاد فيها أو توسع فى مدلولاتها ، شمل غيرها ، مما نرجو أن نوفق إلى إجماله بعدُ ، إن شاء الله تعالى .

أَثَرُ القرآنِ فى اللُّغَةِ

ليس من غرضى ، بل ليس فى وسعى ، أن أستقصى ما ترك القرآن فى اللغة من أثر ؛ فإن هذا — إلى أنه متشعب الطرق ودقيق المسالك — من الكثرة والسعة بحيث لا يخضع لحصر ، ولا ينقاد لاستقصاء — وإنما أحاول أن ألمَّ إلمامة متواضعة بأبرز المظاهر التى تهتف برائدها ؛ لا يتجشم فى الوصول إليها مشقة يتفسَّخ بها أينًا ، ويقع دونها إعياء ؛ ولا يشفق فى محاولة الحصول عليها أن يضل فى سبل البحث والاستقراء .

ترك القرآن فى اللغة أثراً ، يقتضى البحث أن أجعله نوعين ، وأن أسِم أحدهما بالأثر العام ، والآخر بالأثر الخاص .

وأعنى بالأول ، ما كانت اللغة بجملتها مظهراً له ، كحفظها من

الزوال كما زال غيرها من اللغات ؛ وأعنى بالثانى ، ما كان لفظ اللغة أو معناها ، مظهراً له .

ولعل من الميسور التسليم بهذا ، وأن القرآن لو كان قد أثر فى ألفاظ اللغة وحدها وأبقى أغراضها ومعانيها على ما كانت عليه فى جاهليتها ، فلا يقال إن هذا تأثير فى اللغة على الإطلاق ، وإنما يقال : هو تأثير فى ألفاظ اللغة . أو على الأقل يكون المراد ذلك إذا قيل هو تأثير فى اللغة — وكذلك ، لو كان قد أثر فى أسلوبها وأبقى غيره على ما كان عليه لا يقال إلا أنه تأثير فى أسلوب اللغة ؛ ومثل ذلك المعانى والأغراض ، وهذا مايسوغ تسميةَ ما لحق كل واحد من اللفظ ،والمعنى ،والغرض ،والأسلوب ، تأثيراً خاصًّا ؛ إذ كانت الدائرة التى يظهر بها ويعمل فيها ، خاصة ، كما أن الأثر البادى فى بقاء اللغة إلى اليوم ، وفى جعلها لغة رسميَّة لسائر الممالك التى دخلها الإسلام مثلا ، يمكن أن يسمَّى أثراً عامًّا ؛ من حيث كانت الدائرة التى يظهر بها ليست لفظًا فقط ، أو أسلوبًا فحسب إنما كانت اللغة بجملتها مظهراً له .

هذا ما سأسير عليه فى بحثى هذا ، ضارعًا إلى الله ، تقدست أسماؤه أن يجنِّبنى الشبهة ،ويعصمنى من الحيرة ، ويجعل بينى وبين المعرفة سببًا . إنه سميع مجيب !